

فضل العربية على الحضارات القديمة

بقلم: عبد الحمن فاضل

محاضرة القاها الشاعر والكاتب العراقي الاستاذ عبد الحق فاضل في قاعة الحفلات البلدية بالدار البيضاء، في 25 يناير 1965 استجابة لطلب اللجنة الثقافية لعمالة واقليم الدار البيضاء التابعة للمكتب الدائم لتنسيق التعريب، ثم تفضل باعادة القاها في كلية الآداب بالرباط في 24 . 2 . 1965 تلبية لدعوة اللجنة الثقافية لمدينة الرباط التابعة للمكتب الدائم لتنسيق التعريب ودعوة اتحاد كتاب المغرب العربي .

وقد ارتأينا نشرها كما ألقيت من دون حذف ولا تلخيص نظرا لاثار القوى الذي تركه في نفوس المستمعين ورددت أصداؤه الصحف العربية والفرنسية الصادرة بالمغرب .

اللسان العربي

أيها الاخوان والاخوات :

السلام عليكم ..

الاحبار اكبر عددا أو أعلى درجة مما يعرف عنهم عرب الشرق الاوسط . هذا عدا الاسماء العلمية اللامعة ذات الشهرة - لا أقول العربية - بل العالمية .

وكان من جملة هذه المفاجئات السارة أيضا هذا المكتب الدائم - أدامه الله وأدام بركاته - بشقيه المغربي والعربي ، أعنى عمله في التعريب للمغرب وعمله في تنسيق التعريبات لجميع أقطار الاعاريب - ولقد أدهشتني وفرة انتاجه ولم يمض على تأسيسه سوى ثلاث سنوات ، على حين أن بعض الاقطار العربية لم يتيسر له أن يبلغ هذا المبلغ من الانتاج اللغوي كما وكيفا في عشرات السنين . وفوجئت كذلك أن وجدت أحد الدواوين الحكومية البعيدة عن ميسادين اللغة والثقافة ، وهو مكتب المراقبة والتصدير في الدار البيضاء له مصلحة فنية للتعريب يتسع نشاطها لا لتعريب المصطلحات المصلحية اللازمة لاعمال المراقبة والتصدير

ان بلدكم هذا لقيني عند حلولي فيه ببعض المفاجئات، فقد كان الذي شاقني اليكم فقصدتكم من أقاصي الارض ما كنت أسمع من أن بلدكم جميل ، وأن أهله طيبون ، وأن فيه مسحة عربية ما زالت باقية من عز الحضارة الاندلسية ، وأن فيه حركة ثقافية وعلماء أفذاذا . ولكنني عندما نزلت دياركم فوجئت بأن وجدت البلد أجمل كثيرا مما كان يخيّل لي ، وأن فيه من الاكابر الافاضل ما قد تنسل العرب، وأن المغاربة لم يحتفظوا بسيما الحضارة الاندلسية فقط بل احتفظوا كذلك في لغتهم وأزيائهم وعاداتهم بما هو من صميم العروبة العاربة . مما ضيعه الكثيرون من اخوانهم في مشارق العسالم العربي على قريهم من الوطن العربي الاول .. ووجدت أن علماء

الفضل كل الفضيل للموضوعات التي سيتناولها حديثنا ، لان هذه الموضوعات شائقة مثيرة للدهشة والاستغراب بذاتها ، ولعلها ستثير طائفة كبيرة من أهل الاستغراب .. والاستشراق .

وكلمتى هذه جزء صغير فى الواقع ، او لمحبات خاطفات من كتاب انتويت تأليفه بعد استيفاء البحث وارسائه على أسس علمية مكينة ، اذا تيسرت لى المصادر والامكانيات اللازمة لكل بحث وتفرغ . أما الآن والبحث على حاله هذه فلا يستطيع أن أسميه بحثا بالمعنى العلمى ، وانما هو مشروع بحث .. مشروع محاضرة .

طريقة فى التنقيب

كان المقدار الذى يعرفه المؤرخون قليلا جدا عن أحقاب التاريخ القديم وحضاراته ، وعما قبل التاريخ من الحضارات . ثم بدأ التنقيب العلمى المنظم فاحتفرت أطلال ونبشت قبور وقصور ، واستخرجت دفائن ، واذا بأسرار الماضى البعيد تسفر عن وجهها شيئا فشيئا ، واذا بالمتقنين يكشفون بين حين وحين مصابيح وهاجة من الآثار تضىء زاوية من المجهول هنا وقبوا من المخبات هناك .

وكان ان وجدت نفسى قبل بضع سنين منهمكا أنا أيضا فى الحفر والنش عن حقائق الماضى ، فى بلاد العرب وفى غيرها من أقطار الارض . جعلت أنقب فى المكان والزمان ، من (نيبال) فى أحضان جبال هملايا الى (ايسلندة) فى المحيط المتجمد الشمالى .. ومن فجر التاريخ ، بل من دامس ليل التاريخ ، الى يومنا هذا . أجل ، فعلت كل ذلك بمفردى ودون أن أبارح غرفتي أو أزيل مكتبى . ذلك بأن طريقتى فى التنقيب هى نبش المعاجم اللغوية بحثا عن العلاقات البشرية . وصرت أجد بين حين وآخر لقية أنفاس من لؤلؤة .. تومى الى شئ مجهول ، على أن افتش عنه واستجلى غوامضه .

وجدت فى تنقيباتى الكثير من الإلفاظ المشتركة بين العربية واللاتينية أول الامر . وتبادر الى ذهنى أن العربية هى المقتبسة من اللاتينية بوجه عام ، وأن اللاتينية لم تستفد من العربية الا كلمات قليلة مثل (الجمال Camelus و (الفيل elephas و (الفاط الصحرى او الشرق البعيد التى توسطت العربية فى نقلها الى ديار الغرب ، أما كلمة سرية جلييلة الشأن

واختصاصياتها فقط وانما تعم فواضلها المغرب كله ، بل تدعم حركة التعريب ومن ثم الثقيف فى الوطن العربى أجمع . وأود أن أزيد هنا كلمة صغيرة أقولها استطرادا ، وهى أن المغرب العربى لما يعرفه جيدا بمختلف وجوهه .. وجمالياته .. أبناء المشرق العربى .

مفاجآت لغوية

أفليس من واجبي الآن ، أيها الاخوان والاخوات على تعبير المغاربة ، وايتها الاخوات والاخوان على تعبير المشاركة - وتقديم الاناث على الذكور سنة أخذناها عن الغرب ، وهى من باب التعريب أيضا - أفليس من واجبي لقاء هذه المفاجآت الخريبة الكسرية ان ازجى اليكم أنا ابن الخليج ، يا أبناء المحيط ، بضع مفاجآت لغوية أمل أن تسركم ولو قليلا ، كما سرتنى مفاجئاتكم كثيرا ؟

وأول مفاجئاتى هذه ، أيها الاخوة والاخوات ، هو تصحيح عنوان محاضرتنا هذه ، فقد ورد فى بطاقة الاستدعاء أنه « فضل اللغة العربية على الحضارات القديمة » وأنا الذى ادعيت ذلك ظلما وعدوانا ، ولكنى أستطيعكم المعةذرة الآن معترفا أن الذى أردت اليه حقا والذى هو موضوع محاضراتنا فعلا هو فضل العربية على بنى آدم حتى من قبل عهد الحضارات ، وفضل الطفل العربى .. الرضيع العربى .. على لغات البشر ، بل فضل الفروج العربى .. نعم الفروج .. فرخ الدجاجة العربى .. على اللغات الحضارية الراقية .. قديما .. وحديثا .

ولكنى خفت اذا انا صارحتكم بذلك فى بطاقة الاستدعاء ان ترتابوا ، والحق معكم ، فتظنوا بى الظنون ، وتنفروا منى ومن محاضرتى فرائكم من الاسد .

أما الآن وقد تورطتم بدخول هذه القاعة فما الذى يمنعنى ايها الاخوان والاخوات من مصارحتكم بالحقيقة .. لا الحقيقة المرة .. بل الحقيقة الحلوة ؟ نعم سأحدثكم عن فضل فروج أجدادكم الاشواوس ، وسأحدثكم عن أعاجيب من أسرار الماضى البعيد .. البعيد .. مما لو جرى على لسان القصاصة العالمية الحسنة - شهرزاد - لوصفته على طريقتها العذبة بقولها انه لو كتب بالابر .. على أماق البصر .. لكان عبرة لمن اعتبر !

والفضل فى هذا لا يعود الى قدرتى وحذق ، ولكن

وهاجا - مثل ذيل الكوكب المذنب - طوله خمسة وخمسون قرنا ، على الأقل .

إن تحرياتي لم تكن كافية ولا منظمة لكثرة تنقل في الأمصار ، وبعدى عن المكتبات والمراجع ، وحاجتى الى الاستقرار الذى آمل أن أجد كفايتى منه هنا . إلا أن حفرياتى بالرغم من هذا كله عادت على بحصيلة كبيرة من الالفاظ العربية موزعة على الامم القديمة فى اوربا وآسيا . وأود هنا أن أنبه الى نقطة مهمة وهى أنى لا أقصد ما استفادته لغات الشرق والغرب من العربية فى عصور الازدهار الاسلامية ، فهذه الفرائد والالفاظ معروفة يعلم المعجميون الاجانب أنها من العربية ، وقد نقلها ونشرها الكثيرون من اللغويين المحدثين العرب ، وإنما أنا أبحث عن الالفاظ التى اقتبستها اللغات الاجنبية من العربية قبل الاسلام ، بل قبل التاريخ . ولا تدرى المعاجم الاجنبية أن أصلها عربى .

الغطا.

ومن حقكم أن تسألونى : ما الدليل على أن اللغات الاجنبية هى المقتبسة ؟ ألا يجوز أن تكون اللغة العربية هى التى استفادت هذه الالفاظ المشتركة من هذه اللغات الاجنبية ؟

لا يتسع بنا المقام هنا لاستعراض الكثير من الالفاظ المشتركة بين اللغات وتحليل معانيها واشتقاقاتها وردّها الى أصولها ، فإن هذا من البحوث الجادة المصاحبة . مكانها الكتب والمجلات .. على حين أن المحاضرات بطبيعتها ينبغي أن تكون خفيفة سائقة . فأتا بين نازين : ناز الجفاف الذى تتسم به البحوث اللغوية كبعضنا هذا من جهة ونار الطراوة والطلاوة التى تتطلبها طبيعة المحاضرات من جهة أخرى . فلنخفف اذن ونأطلف على قدر الامكان . ولنأخذ كلمة واحدة من الكلمات المشتركة وهى (الاداء) او (التادية) من فعل (أدى) . وهى فى الفارسية (داد) أى أعطى .. وفى اللاتينية addo

مثل (القلم) التى وجدت فى اللاتينية بصيغة calamus فلم أتردد فى الزعم بأن العربية هى التى اقتبستها من اللاتينية .. والسبب واضح . وهو أن العربية حديثة عهد بالنسبة الى اللاتينية أولا ، وإن اللاتين الرومان كانوا هم أهل الحضارة حين كان العرب أمة بدواة وبدائية ثانياً ، ثم علمت بعد ذلك أن أصل الكلمة اغريقى - kalamos - وإن اللغويين كافة يرون أن العرب إلبدة هم الذين اقتبسوا هذه الكلمة الثقافية الشريفة وما زالوا يتوهمون ذلك حتى اليوم .

ولقد أدهشنى أن وجدت فى أثناء حفرياتى أن لغة العربية علاقات متشابهة مع لغات بنى الانسان فسى التاريخ القديم ، أعنى الاغريقية واللاتينية والفارسية : ولكنى تذكرت أن لغة الاكديين ، أى البابليين ، كانت اللغة العربية ، عربية ذلك الزمان والمكان بطبيعة الحال ، أى قبل أكثر من (5.500) عام ، فى أرض الرافدين .. وإن كلمة (بابل) نفسها عربية لان أصلها البابلى هو (باب ايلو) أى باب الاله .. ووجدت مثلاً أن نظرية المثلث القائم الزاوية المنسوبة الى اقليدس قد اكتشفت فى أرض الرافدين مكتوبة بالعربية البابلية على رقيم من الطين قبل عهد اقليدس بسبعة عشر قرناً ، أى منذ أربعة آلاف سنة . وتذكرت أن شريعة حمورابى البابلى العربى أقدم من حضارات الاغريقى واللاتين والفرس جميعاً . (I)

هنا تغير وجه المسألة ، بل انقلب عقبا على رأس . وأخذ يبدو لى أن الاصح هو أن هؤلاء ، أعنى الاغريقى واللاتين والفرس ، هم الذين اقتبسوا من أنوار اللغات : البابلية والآشورية والحميرية والفنيقية والآرامية .. التى حملت مشعل الحضارة بالتعاقب ، مجتمعة ومنفردة . وإذا باللغة العربية ليست باللغة الحديثة ولا البدائية ، وإنما هى لغة علم وثقافة منذ عهد الاكديين . وبكلمة أخرى إن العربية أعرق لغة حية على وجه الأرض ، فما من لغة غير العربية اليوم تسحب وراها ماضياً ثقافياً

(I) وجدوا فى اطلال بلدة أشننفة Ashnunnah بالعراق قانوناً أقدم من شريعة حمورابى بمئتي سنة . ومن مزايا قانون أشننفة هذا أولاً : أنه يذكر أقدم مظهر معروف للعملة وهو وزن معين باسم (شقل) من الفضة - أى الثقل - شبيه بما سماه العرب (المتقال) . ثانياً : تحديد أسعار الضرورى من السلع للحياة العامة من معاش وصناعة ونحوها .

و dono و datio ومنها فى الإيطالية
 dato ومن صورها فى الفرنسية donner
 و donation و date وللکلمة فى كل من هذه
 اللغات اشتقاقات أخرى . ولها فى الانكليزية أيضا
 بعض الصور منها الكلمتان الفرنسيتان الاخيرتان .
 أعنى date و donation
 فاية واحدة من هذه اللغات الست هى (المعطية)
 الأولى لهذه الكلمات الدالة على (العطاء) ؟

النظرية الراجحة هى أن اللغات الاوربية اصلها آرى
 هندى . لذلك سموها اللغات (الهندية - الاوربية) .
 فاذا أخذنا بهذه النظرية الشائعة لاحت الكلمة آريسة
 الاصل ، انتقلت من الشرق الى اوربا ، ولعلها مرت فى
 طريق انتقالها ببعض البلاد العربية فتخلفت فضيلة منها
 للعرب . ونحن لا نريد أن ننكر المادة الآرية فى اللغات
 الاوربية ولا الدماء الآرية فى شرايين الاوربيين . ولكن
 حفرياتى اللغوية كشفت لى ما للعربية من دور خطير
 فى هذه اللغات الاوربية . بل ما للدم العربى من قسط
 كبير فى شرايين الاوربيين وأوردتهم ، وما للأفكار
 العربية من تفاعل شديد فى رؤوسهم وفى نفوسهم .

إذا وجدنا كلمة مشتركة فى بضع لغات فانما
 نستطيع أن نعرف اللغة الام منهن بأحدى طريقتين فيما
 أظن . اما أن نعرف فى آية واحدة من هذه اللغات كانت
 الكلمة أقدم عهدا ، وإما أن نجد فى احدى هذه اللغات
 الجذر البدائى الاصيل الذى نشأت منه الكلمة . أما
 من حيث القدم فقد وردت الكلمة فى العربية الاكدية
 وهى (ندانو) بمعنى أعطى أيضا .

ويبدو لى أن هذا لا يكفى لاقتناعكم . ولا سيما أن
 فيكم من أجلة العلماء من لا يقنعه إلا البرهان الحاسم .
 وكأني ببعضكم يقول : ومن يضمن لنا أن الاكدية ليست
 هى المقتبسة ؟ فان كون الاكدية أقدم من هذه اللغات
 فى الحضارة لا يدل على أنها أقدم منها فى الوجود ،
 كما أن كلمة العطاء ليست من الكلمات الحضارية
 الراقية التى لا تعرفها الامم المتخلفة لنقول ان الاكديين
 هم الذين اخترعوها فنقلها عنهم الآخرون . نعم ، الحق

معكم . انه اعتراض معقول ، أنا الذى وجهته الى نفسى
 فى الحقيقة قبل أن يوجهه الى أحد . وأنتم شهودى على
 ذلك . ولكنى مصر مع هذا على أن كلمات العطاء هذه
 الموزعة على عدة لغات اصلها عربى قح ، لاني
 وجدت النواة الأولى التى انبثقت واثمرت و (أعطت)
 ثمارها الى أهل الارض شرقا وغربا ..

اليد وبناتها

وجدتها ايها الاخوة والاخوات ، فى العربية . انها
 كلمة صغيرة من حرفين اثنين هما الياء .. والdal .
 نعم ، انها (اليد) ، هذا العضو المهم من جسم الانسان .
 لقد أكثر العرب من اشتقاق الافعال والادوصاف من
 أسماء الاعضاء . فمن (الوجه) اشتقوا المواجهة والاتجاه
 والجهة والتوجيه والرجاحة والجاه .. الى آخر ما هناك
 ومن (الظهر) اشتقوا الظهور والمظهر والظاهر والظهير
 والتظاهر والتظاهرة والمظاهرة .. الى آخر ما هناك .
 فلا عجب إذن أن اشتقوا من (اليد) فعل (أيد تأييدا)
 بمعنى المساعدة ، والمساعدة أيضا من (الساعد) بمعنى
 المعاونة وهذه أيضا من (العضد) بمعنى المكاتفة ،
 وهذه أيضا من (الكتف) بمعنى المؤازرة ، وهذه أيضا
 من (الآزر) وهو (الظهر) الذى تحدثنا عنه توا .

كذلك صاغ العرب من (اليد) فعل (ودى يدي وديا
 ودية) بمعنى أعطى ، والدية هى التعويض يدفع عن دم
 القتيل كما هو معلوم . كذلك صاغوا فعل (أدى) بمعنى
 أعطى باليد . ثم انهم فكوا ادغام الـdal المشددة فى
 (أدى) بإدخال الهاء مرة فقالوا (أهدى) ومنها (الهدية) ،
 وبإدخال النون مرة فقالوا (أندى) بمعنى أعطى وأكثر
 العطاء ، ومنها (الندى) أى السخاء . و (أندى) هذه
 تطورت فصارت (أنطى) وأنطى صارت (اعطى) .. ثم
 آتى .. ثم آتى .

فهل من شك بعد هذا .. بعد كل هذا .. فى أن
 أصل الكلمة عربى صميم ؟ اننا نرى شجرة النسب هنا
 كاملة حتى آدم العطاء : اليد . آتى بنت آتى .. بنت
 أعطى .. بنت أنطى (I) بنت أندى .. بنت أدى ..
 بنت اليد .

(I) هذا نقوله خلافا للقاعدة المشهورة التى تزعم أن (أنطى) لغة متفرعة من (اعطى) نطق بها بعض العرب
 كسعد وهذيل .. وخلافا لما يقوله بعض المحدثين مصححين لخط الأقدمين من أن (اعطى) من (آتى) . فالذى نراه
 أن العكس هو الصحيح فى كلتا الحالتين .

والسؤال الآن هو كيف استعجمت هاته اللفظيات
اليغريبات ؟

ان فعل الامر من (ودى) هو (د) كما تعلم . مثل (ق)
من (وقى) ، و (ع) من (وعى) . وفعل الامر (د) هذا هو
الذى اقتبس منه الفرس ، فهو نفسه بنفس اللفظ والمعنى
فعل الامر عندهم أيضا . ومنه صاغوا الماضى (داد)
والمصدر (دائن) .

ومن فعل (أيد) تسرب الى الإنكليزية والفرنسية فعل
aid و aider بنفس المعنى العربى ، أى
المساعدة .

كذلك تناول اللاتين فعل (أدى) فنطقوه على طريقتهم
addo بنفس المعنى . ومن فعل (ندانو) فى الاكدية
صاغوا فعل dono بمعنى (أهدى) . وعن اللاتينية
أخذت اللغات الأوروبية الحديثة وزادت فى التوليد
والاشتقاق .

واذا بهذه الكلمة الصغيرة - اليد - تفرخ تفرخ
الدجاجة ، وتوزع هباتها على العالمين ، منذ السوف
السنين . ومن الطرائف ان كلمة data وهى تعنى
(المعطيات) باللاتينية وكثير من اللغات الأوروبية ، قد
ترجمها العرب المحدثون (المعطيات) . وعما هى data
الأوروبية ترجع بنسبها عن طريق لاتينية الى (اليد) ،
وما هى نظيرتها (المعطيات) الآسيوية ترجع بنسبها عن
طريق عربية الى (اليد) أيضا ، وقد قرنهما المترجمون
على عهدنا هذا . فسبحان من يجمع الشمل بعد شتات
الوف السنين .

والقلم وما يسطرون

ومن المناسب هنا أن نلفت التفاتة سريعة الى (القلم)
الذى هو kalamos فى الإغريقية و calamus
فى اللاتينية ، لتطمئنوا على مصيره ، قبل الخوض فى
شؤون أخرى . انى أعلن لكم بصراحة أنه عريق النسب
فى العروبة ، وأنه ينتمى الى أسرة عربية ضخمة قل
مثلها فى اللغات ، وأحسبها تربو على (500) نفس .

ان (القلم) أولا مشتق من فعل (قلم قلما) مثل (قطع
قطعا) وزنا ومعنى . ومثلها (جلم جلما) تعنى قطع أو
حلق . ولها أخوات : (جل ، جلع ، جله ، جلف) . وفعل
(قلم) أيضا له أخوات : قلف ، قلغ ، قلع ..

وحرف اللام فى فعل (قلم) مبدل من الطاء فى (قظم)
والصاد فى (قصم) والضاد فى (قضم) .. الى آخر ما
هنالك .

وهذه كلها مع كثير غيرها ترجع الى الام الاولى (قط)
وهى الام الحوائية ليشات الانفعال الدالة على القطع
واشباعه . أما فى اللغتين الأوربيتين فنجد الكلمة فى
المعجم يتيمة ، لا أهل لها ولا أقارب .

ثانيا أن القلم يعنى القصب فى اللغات الثلاث .
وصياغة كلمة تعنى القصب من فعل ماضى يعنى القطع
ليس بدعا فى اللغة العربية . فان كلمة (القصب) أيضا
صيغت بنفس الطريقة من الفعل الماضى (قصب) الذى
يعنى القطع أيضا . فالظاهر أن القوم الذين صاغوا اسم
(القلم) من الفعل الماضى هم القوم الذين صاغوا
(القصب) بنفس الأسلوب : أى العرب ، وبما قبيل
بذاته من العرب فى كلتا الحالتين .

وثالثة تحبونها .. هى أن الكلمة kalamos
calamus ليس لها فى هاتين اللغتين الحضاريتين
الراقيتين الأوربيتين الا معناها البدائى : القصب ..
القصب فقط . وانما اكتسبت معناها الحضارى الثقافى
فصارت تعنى آلة الكتابة فى العربية .. فى العروبة
فقط . ذلك ان العرب لما بدأوا يستعملون البراع - أى
القصب أيضا - للكتابة اختاروا احدى المترادفات (القلم)
للدلالة على هذا القصب الذى به يسطرون .

ارجعوا الى معاجم اللغات الثلاث لتتأكدوا . ارجعوا
الى المعجم العربى وحده على الأقل لتروا ان (القلم) يعنى
القصب الذى يرى رأسه اعدادا للكتابة . فاما قبل بربه
فاسمه القصب .

من ثمار الحفريات

هذا قليل جدا من كثير جدا من مكاسبنا فى الحفريات
المعجية . واليكم نماذج قليلة أخرى عن اللغات الأوروبية
الثلاث : الإغريقية واللاتينية والانكليزية :

هاكم من الإغريقية أولا :
sema أى العلامة ، وأصلها العربى : السمة والسيما ،
والسومة أيضا .
muthos وأصلها العربى المثلة والمثلة ، ومعناها فى
كلتا اللغتين الإغريقية والعربية هو : ما يروى للعبارة

that	من : ذاك
cut	من : قطع ، أى قطع .
earth	من : أرض
tall	من : الطول بمعنى طويل .
wine	(نبىذ) من : وين (العنب الاسود) .

الاصيل اللغوى المشترك

وانى لفى نشوتى اتخط بين المعاجم ، فرحا بما اكتشف من تفاسى التحف اللغوية التى تعزز هذه الفكرة عندى وتزيدها رسوخا فى ذهنى - أعنى فكرة فضل العربية على اللغات الاوروبية - واذا بعقبة كالجبل تنتصب امامى ذات يوم لتقلب الاوضاع وتذهب بكل جهودى أدراج الرياح الاربعة . وذلك انى وجدت فى احدى مطالعاتى ان بعض المستشرقين قد لاحظوا الشبه لا بين العربية واللغات الاوروبية وحسب ، بل بين الساميات والآرياء كافة ومنها أمهرن السنسكريتية - أى الهندية - القديمة ، بل ان منهم من طابقوا جميع الكلمات الاصلية فى اللغات السامية مع نظيراتها فى اللغات الآرية فوجدوا ان جذورها الثنائية مشتركة بين الطائفتين ، أما الكلمات التى لم يجدوا لها جذرا ثنائيا مشتركا فقد أوجدوا لها جذرا ملأما افترضوا انه كان موجودا فى غابر الزمان ثم اندثر .

والمقصود بالجذور الثنائية للكلمة هو ان الكثيرين من علماء اللغة يعتقدون ان أصل الكلمات كان أول الامر يتألف من حرفين تقليدا لاحد الاصوات الطبيعية ثم زيدت فى كل لغة حروف أخرى بمرور الزمن .

وقد اختلفت آراء المستشرقين فى تحليل هذه الظاهرة اللغوية ، أى ظاهرة التشابه بين أصول الالفاظ السامية والآرية ، فبعضهم استنتج ان الآريين والساميين كانوا يتكلمون لغة واحدة بادت منذ زمن سحيق بعد ان انشعبت شعبتين . وبعضهم قال ان الاصل البشرى الذى انحدر منه الساميون والآريون كان يتكلم لغة بدائية قديمة فلما انسلخت هاتان الطائفتان سلكت كل واحدة منهما طريقها فى تطوير لغتها ، وبقيت أثاره من اللغة القديمة الام تظهر فى هذه الجذور الثنائية . ولكن

من أخبار الاولين أو أساطيرهم . ومنها mythology فى اللغات الاوروبية ، أى (علم الاساطير) . ويمكننا فيما أظن ان نسميه فى العربية (علم المثالات) .. اذا سمح لنا المكتب الدائم للتعريب . وأود هنا أن أبشركم سلفا بأن mythology هى ايضا عربية مثلكم ، وسنعود اليها حين يأتى دورها .

historia أى الخرافة . وأصلها العربى : أسطورة ، وهى فى العربية من الصطور أى الكتابة . ومنها فى الانكليزية history بمعنى التاريخ ، وفى الفرنسية histoire بمعنى التاريخ أو الحكاية . aster و astron أى النجم . والصفة الاولى aster من اسم (عشتار) الالهة البابلية التى تعنى كوكب الزهرة ، والصفة الثانية astron يظهر انها من اسم (عشتاروت) كما ينطقها انغليقيون وهى تعنى النجم بوجه عام لدى الاغريق . وهى كذلك فى اللاتينية ، وتنطق astrum . ومنها صيغ اسم علم الفلك : astrologia بالاغريقية واللاتينية و astronomie , astronomy بالانكليزية والفرنسية . ولو أننا صغنا اسم علم الفلك فى العربية على هذه الطريقة من اسم (عشتار) لقلنا ان astronomy هو (العشتر) ! (I)

techné أى الفن . ومنه technology فى اللغات الاوروبية الحديثة . وأصلها العربى (التقن) بمعنى الملكة والجملة . ومنه قالت العرب وان الفصاحة من تقنه أى من طبعه .

نكتفى بهذه الخمس الكلمات من الاغريقية ، واليكم خمسا أخرى من اللاتينية .

solidus وعريبتها : الصلب والصلد والصلود .

capesso وعريبتها : قبض .

tabum وعريبتها : طاعون .

genius وعريبتها : جنى

materia وعريبتها : مادة .

وهذه خمس أخرى من الانكليزية :

(I) اسم عشتار ما زالت منه بقية فى لغة نيبال ، فقد اندرس منه النصف الاول وبقي اسم آلهة الحب والجمال عندهم (تارا) .

أكثر علماء اللغة ينكرون المسألة من أساسها ويرفضون فكرة انتماء هاتين المجموعتين من اللغات الى أصل واحد بحجة أن النظرية غير علمية لأنها افتراضية ولأن أدلتها غير قاطعة ، ومن ثم كان الأخذ بها ضربا من العبث .

والآن ما موقفنا نحن ، اخواني أخواتي ، من هذه المعضلة الجديدة ؟ هل نصدق هذه النظرية فنقول ان التشبه بين العربية والآريات يرجع الى الأساس اللغوي الاول الذى لا نعرف عنه شيئا فلا يبقى فضل للعربية على غيرها وتغدو كل مساعينا فى الحفر والتنقيب هباء منثورا ؟ أم هل ننضم الى خصوم النظرية من علماء اللغة ونهمل هذه الظاهرة الصريحة التى لا يمكن إنكارها مهما تفاضى بعضهم عنها وعن النتائج المترتبة عليها ؟

لا هذا ولا ذاك .. فنظريتنا القائلة بفضل العربية على الآوريبات صحيحة ، ونظريتهم القائلة برجوع الطائفتين الى أصل واحد صحيحة ايضا . فكيف كان ذلك ؟

اليكم البيان :

إذا أمعنا النظر فى الألفاظ المشتركة نجد ما تتألف من صنفين متميزين ، أولهما الكلمات البدائية كأسماء الحيوان وأعضاء البدن وما الى ذلك . وثانيهما الألفاظ الحضارية الراقية .

فلنعاود الآن ذكر هذه الألفاظ الحضارية التى مررنا بها منذ قليل :

historia أى الأسطورة ، muthos أى المثلثة ، techné أى التقن ، و astrologia أى علم الفلك ، وهذه الألفاظ موجودة فى الإغريقية واللاتينية معا . ولنصف اليها alphabeta أى الألفباء التى نعلم جميعا أن الإغريق اقتبسوها من العرب الفتيقيين . فهذه تعابير حضارية راقية لا يمكن اعتبارها من الألفاظ البدائية ، لا من حيث القيمة اللغوية ولا من حيث الرقى المعنوى .

وعلى هذا لا يمكن أن تكون هذه الألفاظ الحضارية المشتركة بقية أثرية من لغة قديمة عفى عليها الزمان . ولا أجد حلا للمشكلة الا أن نعتز بفضل العربية على هاتين اللغتين وفضل العرب على هاتين الامتين المتحضرتين فى أوربا فى العصور القديمة . والدليل كما قلنا هو

أولا قدم الحضارات العربية من أكديسة وآشورية وحميرية وفنيقية وأرمية .. وثانيا ان أصول هذه الألفاظ موجودة كلها مع تفرعاتها فى العربية ، بينما هى فى هاتين اللغتين الآوريبيتين فروع بلا أصول .. مما لا يدع لنا مجالا للريب فى حقيقة نسبها . ولولا ضيق المجال لا يتيناكم من الامثلة الكثيرة بما يكفى لاقناعكم .. واملالكم .

اللغة الام

بعد أن اطمأن بالناس على هذه الناحية أى فضل العربية فى العهود الحضارية نعود الى التساؤل عن هذا التشبه الآخر بين جذور الألفاظ البدائية فى العربية والآريات ومنها السنسكريتية - الهندية - هذه الظاهرة اللغوية العجيبة ما معناها ؟ وكيف نفسرها ؟

سألت نفسى : هل التقت العربية بالهندية ؟ فى أى مكان ؟

هل العرب أصلهم هنود ؟ هل الهنود أصلهم عرب ؟ هل هاجر أحد الطرفين الى بلاد الآخر فى الماضى السحيق ؟ فى أى زمان ؟ هذا هو السؤال الآن ، فى أى زمان .. لا فى أى مكان فقط .

أجل ، لا بد هناك من هجرة .. فى زمان .. من مكان الى مكان . ثلاثة ألفاظ : هجرة ، زمان ، مكان .

أيها الاخوان والاخوات ، لقد انحلت المشكلة . مكان المسرحية أو المأساة هو الجزيرة العربية . وزمانها قبل نحو واحد عشر الف سنة . وخانتها هجرة ، نعم هجرة مروعة .

وجدت المفتاح فى حقيقة تاريخية معروفة ، كثيرا ما مررنا بها وتحدثنا فى شأنها دون أن يخطر لنا أن نتساءل عن نتائجها اللغوية العظيمة .

من المعلوم أن الجزيرة العربية كانت فى الماضى البعيد غابة لفاء كغابات الهند وأواسط افريقيا ، تخترقها انهار عديدة كبيرة وصغيرة ، وتغادىها أمطار غزيرة ، فكانت كثيرة السكان وافرة الثمار والحيوان . وكان هذا فى زمان كان الثلج فيه يغطى شمالى أوربا فلا يترك فيها فرجة لمعيشة ذى روح من انسان أو حيوان . فلما ذاب ذلك الدثار الزمهريرى من الثلج عن أوربا فاسمرت ارضها لتتربى وجه الشمس كانت

هذه النعمة الاوربية والانسانية الكبرى كإثارة على الجزيرة العربية ، لان ذلك سبب تغير اتجاهات الرياح فاذا بالسحب المطارة التي كانت تغدق بركاتها على العرب تتحول الى اوربا ، واذا بتلك الجنة الفيحاء تصوح تحت أشعة الشمس التي أصبحت نارا تلظى على الجزيرة العربية وبردا وسلاما على أوربا .. واذا بالغابة تصبح الصحراء القاحلة المحترقة التي تعرفون .

فما ذا كانت النتيجة ؟ ما ذا يفعل الملايين من أبناء الجزيرة العربية الذين اعتادوا العيش الرخس الهنيء في تلك الجنة المصوغة ؟ النتيجة الطبيعية انهم صاروا ينزحون عنها بسرعة تتناسب مع سرعة انتشار الجفاف والقحط فيها . فلا بد ان منهم من هاجر شمالا الى الشام والعراق ، وان منهم من هاجر مشرقا الى ايران وما وراءها ، ومنهم من هاجر مغربا الى مصر وما وراءها ، ومنهم من عبر البحر المتوسط والبر الاناضولى الى أوربا .

ويظهر أن بعضهم هاجر الى الهند . ولا نعلم الاحوال الارضانية (أعني الجيولوجية) في تلك الايام ، فلعلها كانت أكثر مساعدة على السفر الى الهند مما هي عليه اليوم . ومهما يكن فان عبور الخليج العربي لم يكن بالامر العسير ، ولا سيما من أضيق نقاطه عند مضيق هرمز .

ولئن كان الاوربيون قد ساروا في الاصل من الهند حتى بلغوا السويد والنرويج وايسلندة فان هجرة العرب الى الهند ملاحه عبر الخليج العربي او مسيرة عبر بلاد فارس أمر يفقد طبيعيا هينا لا غرابة فيه . ومهما يكن فان اللغة الفارسية فرع من السنسكريتية ، فاذا استطاعت السنسكريتية أن تاتي من الهند الى ايران ففي استطاعة العربية ايضا أن تقطع نفس المسافة من ايران الى الهند . هذا الى أن وطن السنسكريتية الاول غير معروف بالضبط هل هو الهند أم غيرها . وأرجح ، بناء على مقتضيات نظريتنا في الهجرة العربية ، أن موطن الآرية الاولى بصفتها العربية الاولى قد كان في موضع من المنطقة التي تجمع بين ايران وافغان وباكستان . ومن هناك توزعت فيما بعد . وايران هي المحطة الاولى على كل حال .

ولا بد أن العرب كانوا يومئذ ، كما كانوا أبدا ، على جانب عظيم من الحيوية .. العدد القليل منهم يملا

المكان الفسيح ويفره ، كالذي رأينا في شمال افريقيا مثلا على العهد الاسلامي . وكان لغتهم من الحيوية ما كان لأصحابها . ويبدو انهم استقروا وتوطد لهم العيش في شبه القارة الهندية ، او قريبا منها ، بحيث أن لغتهم التي يظهر أنها كانت على الاغلب في مرحلتها الثنائية عهدت طفت على اللغة او اللغات المحلية التي لعلها كانت ضعيفة جدا بدائية جدا . بل لعلهم نزلوا أرضا خالية نموا وترعرعوا فيها فكانوا أمة وحدهم أول الامر لهم لغتهم وحدها .. ثم كثروا وانتشروا .

وهذا ، اخواني اخواتي ، هو التفسير الوحيد الذي تراهي لي في ظلمات التاريخ لهذه الظاهرة اللغوية ، ظاهرة تشابه الالفاظ السنسكريتية في جذورها الثنائية مع الالفاظ العربية .

كون الجزيرة العربية جنة غنا، قبل أحد عشر ألف سنة حقيقة تاريخية لا ينكرها أحد من العلماء . وتحولها الى صحراء مجربة قاحلة حقيقة تاريخية جغرافية لا يبارى فيها أحد من العلماء ولا الجهاد . وأما أن الجذب يسبب الهجرة وخاصة في الجزيرة العربية فحقيقة تاريخية جغرافية اجتماعية اقتصادية ثالثة تكررت مرارا ، لا على اثر انكسار سد مأرب وحسب ولكن في مناسبات كثيرة أخرى . كلما أناخ على الجزيرة العربية بلاء من قحط أو حرب ، أي كلما عصرتها الظروف خرجت منها موجة مهاجرة كما يخرج معجون الاسنان من الانبوبة عندما تعصرها بأصبعيك .

ان المسألة ، ايها الاخوة والاخوات ، ليست جوازية ، بل وجوبية . أعني لا بد ان الهجرة من الجزيرة العربية قد وقعت ، ولا بد أن وقوعها ترك آثاره اللغوية المبينة . وهذا نفسه هو تفسير الشبه بين اللغة العربية واللغات البربرية في شمال افريقيا مثلا .

الجنود الصوتية

ولكني مع هذا ، أجل مع كل هذا ، لا أكتم عنكم أنني اعترضت على نفسي في هذا الاستنتاج الخطير ، وقلت لنفسي : افترض يا صاح ، أن هجرة الاعارب الى الهند او غيرها من الاصقاع وزرع لغتهم فيها لا يبدو أن يكون وجها من وجوه الاحتمال ، ان لم يكن لدينا برهان يفنده فليس لدينا برهان يؤيده . والبحث

العلمى لا يبيع لنا بنساء الحقائق وخاصة مثل هذه الحقيقة الضخمة ، على الاحتمالات والافتراضات ، محابة لفكرة قبلية غازية أو بعدية واهية ، ولا اندفاعا وراء عاطفة وطنية أو عصبية قومية . وانما قصارنا فى مثل هذه الحال أن نقول ان الامر يحتمل أن يكون كذلك ونترك تهيئته للزمن وللناس . فلنفترض كذلك اذن أنه يحتمل أن يكون العرب هم الذين اقتبسوا لغتهم من الآرية الاولى فى ظروف تاريخية غامضة لا علم لنا بها .

ولكن ما العمل وقد انتصب أمامى ديلان كبيران يؤيدان فضل العربية بالرغم من اعتراضاتى ؟

أما الدليل الاول فهو أننا فى العربية وحدها نجد الأصول التى نشأت منها الكلمات المشتركة بين العربية والآريات على نحو ما رأينا فى الألفاظ الدالة على العطاء وكيفية انبثاقها من (اليد) . بل أكثر من هذا أننا نجد فى العربية النبرة الصوتية التى نبتت منها الكلمة منذ يوم ولادتها . اليكم مثلا فعل (فى) الذى يحكى صوت أجنحة العصفور عند فزاره . وما زالوا فى العراق يقولون فى وصف فرار الهارب : عمل فرودودودود .. وطار مثل العصفور . ومن هذه الكلمة يقول الانكليز : (فلاى fly) بمعنى يطير ، و (فلايت flight) بمعنى الفرار . ولا يمكننا أن نتبين الاصل الصوتى فى هاتين الكلمتين الانكليزيتين المحرفتين دون استدلال بالاصل العربى (فر) .. الذى يحكى الصوت الطبيعى ويصوره تصويرا دقيقا ، ومن ثم لا يمكن أن تكون الكلمة الانكليزية flight هى أصل الكلمة العربية (فر) .

الاصوات العربية

وأما الدليل الثانى فهو الاصوات العربية التى لا وجود لها فى اللغات الأعجمية ولا سيما الاصوات الحلقية منها . فاذا وجدنا ألفاظا مشتركة منشؤها من هذه الاصوات الحلقية الطبيعية ورأينا الأعاجم قد اضطروا الى استبدالها بأصوات يقدرون عليها أفلا يدل ذلك على أصلها العربى ؟

كثيرا ما سمعنا الاجانب ينتقدون اللغة العربية لوجود أصوات العين والفين والحاء والخوا والصاد والفاد وغيرها فيها ، مما يجعلها فى زعمهم غليظة خشنة يصعب

النطق بها . وفاتهم أن هذه الحروف طبيعية ، أنهما ان الطفل فى كل بلاد العالم ينطق بها عفوا ، ولكنه حينئذ يكبر لا يجد هذه الاصوات فى لغة أهله فيهملها الى أن تتعطل بالتدريج أعضاء النطق المكلفة بأدائها ، كما تتعطل اليد أو الرجل أو أى عضو يهمل استعماله منذ الصغر .

فلنضرب بعض الامثلة على كيفية نشوء الكلمات من الاصوات العربية الصعبة على غير العرب . لناخذ صوت (الحاء) ، فهو أحد هذه الاصوات الحلقية الطبيعية ، ينبعث تلقائيا عند التنحنح فيقول الصغير (أح) لمجرد تنقية حنجرتة دون أن يريد مخاطبة أحد أو التعبير عن شىء . فمن هذا الصوت صاغ العرب فعل (أح) بمعنى سعل ، ثم أصبحت بمرور الزمن (قح) و (كح) وهما صيغتان مندثرتان فى العربية الفصحى فيما يظهر ، ولكنهما ما زالتا مستعملتين فى بعض بلاد الشرق الاوسط . ومن (قح) صاغ العرب الاقدمون فعل (قحف) و (قحب) ومازال المغاربة يقولون (الكحبة) بمعنى السعال ولكننا لا نشك ان الجذر الثنائى الاصيل هو فعل (أح) لانه هو الذى يصور الصوت الطبيعى للسعال . وفعل (قحف) يطالعنا فى الانكليزية بصيغة (كف) cough بنفس المعنى . ويقول المعجم الانكليزى ان هذه الصيغة منحذرة من الانكليزية الوسطى التى ورد فيها بصيغة coghen وهذا منتهى علمهم . فهل نستطيع أن نستطيعون ، أن نقول أو يقولوا ، ان cough أو coghen هما الاصل الذى أخذ عنه العرب فعل (قحب) و (قحف) ثم جعلوه (قح) ، ثم أعادوه الى الاصل الطبيعى (أح) ؟ ان البذرة يمكن أن تنمو فتصبح شجرة لها فروع ، ولكن الفروع لا يمكن أن تعود الى شجيرة ثم بذرة .

الطفل العربى

واعرض لكم الآن نموذجا رائعا من ثمار الحفريات اللغوية ، اسمحوا لى هذه المرة أن أعده دليلا قاطعا . وهو فوق ذلك يعود بنا الى أقدم منابع اللغة وربما أجملها أيضا . وسنرى فى هذا النموذج كيف تنبت البذرة وتنمو وتورق وتزهى تحت سمعنا وبصرنا . وبعبارة أخرى سنرى بأى عيننا كيف انبثقت اللغة ونمت .

لقد حان الآن أن ننجز لكم ما وعدناكم به من الحديث عن فضل الطفل العربي - الرضيع العربي - على لغات بني آدم ..

ها هو طفلنا الوليد قد استوفى نصيبه من الرضاع بعد نومة هنيئة ، فشاع في نفسه الجديدة شعور غامر بالسعادة ، فاذا به يرفع عقيرته بالغناء ، كما يفعل الكبار من العرب غالياً في أمثال هذه المناسبات ، ويصبح دون سابق انذار : غغغغ ... وكثيراً ما يستخف الطرب وتطفئ عليه النشوة فيرتقي طبقة أخرى في الغناء ويصبح معلناً رضاه عن الدنيا وعن سير الأمور فيها بقوله متحمساً : لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ لغ وأظننا كلنا قد لحظنا مراراً هذه الاغردة وطربنا لها . وهذا الصوت الحلقى أعنى حرف الغين هنا ، ليس خاصاً بالطفل العربي ، بل هو عالمي يترنم به عفويًا وفطريًا أطفال جميع الشعوب كالذي قلنا أكثر من مرة . وبكلمة أخرى ان الطفل يولد على الفطرة ، عربياً في نطقه .. وأبواه يفرنسيانه او يؤغرقانه أو يهندانه ..

فلننظر أيها الاخوة والاخوات .. الاصح هنا تقديم ذكر الاخوات على الاخوة لان الموضوع موضوع أطفال من أولى به . نعم ايها الاخوات والاخوة ، ما معنى هذه الظاهرة الانسانية وما قيمتها أو قيمها ؟ انها قبل كل شيء (كلام) بالنسبة الى قائلها - الطفل - لانها (تعبير) عن شعوره بالوجود وفرحته بالحياة التي أخذ يستطيعها . وهي ثانياً (لغو) بالنسبة اليها لا تعبر عن معان محددة كالفاظنا القاموسية التي اعتدنا التعبير بها . وهي مع هذا وذاك (غناء) .. أول غناء يبدأ به الانسان من تلقاء نفسه بدون تعليم . وهي رابعا (دعوة) من هذا الصغير للكبار من الآدميين تبتعث اواصر (التعاطف) الانساني والشعور بالرحمة في نفوسهم ولا سيما نفوس الامهات .

ثم فلننتظر هل ادرك العرب الاقدمون في تلك العصور الحجرية والعهد الغابرة السحيقة .. هل أدركوا هذه المعاني في لقلقلغة الطفل هذه ؟ العجيب ايها الاخوات والاخوة انهم أدركوها كلها ادراكا عميقا، وعرفوا قيمتها حق العرفان ، وتركوا لنا ذلك واضحا في لغتهم - لغتنا .

أما تقديرا للقيمة (العيشية) في هذه اللقلغة فقد صاغوا منها أول الامر فعل (لغا لغوا) أي قال، الصغير

(لقلقلغلخ) . ثم عمت الكلمة فاستعملت للكبار والصغار جميعا بمعنى الهذر والتخليط في الكلام . وليعذرنا انصار (العيشية) في الفن الحديث ، فان العرب عدوا ما لا يفهم وما لا معنى له (لغوا) .

على أن تسمية لقلغة الوليد (عينا ولغوا) أمر عادي لا براعة خاصة فيه . وأما الذي يستحق التسجيل لما فيه من دلالة على عبق الاحساس وسلامة الفهم فهو أن العرب منذ عهدهم البدائي البعيد ادركوا نفسانيا وعقلانيا ما في هذه اللقلغة من قيمة كلامية ، فاعتبروها تعبيرا وخطابا من هذا الكائن الجاهل اليكم المهذار ، إذ قالوا (لغا لغوا) بمعنى تكلم ، أيضا . ولعلكم تستغربون ذلك . فمن انكر هذا فما عليه الا أن يراجع أقرب معجم عربي من محل الحادثة ، ليرى أن (اللغو) يعني الكلام كما يعني الهذر والتخليط . ولكن الرغبة في تجنب اللبس أدت الى اعمال أحد المعنيين . وجدير بالتأمل ايضا أنهم من هذا (اللغو) بمعناه الخطابي التعبيري صاغوا لفظة (اللغة) .

ثم تحور فعل (لغا لغوا) فأصبح (نقى نفوا ، ونقى نغيا ، وأنقى انغاء) - بالنون - بمعنى الكلام أيضا . ثم ان هذه اللقلغة من رضيعنا الطروب هي ينبوع الغناء الانساني . وما غفل العرب عن معناها الموسيقي هذا بل قدروه كذلك وقيموه ، ومن ذلك استعملوا (النغو والنقى والانغاء) بمعنى الغناء أيضا اول الامر وقد بقي في المعاجم دليلا على ذلك انهم صاغوا (النغية والنقوة) بمعنى (النغمة) الحسنة . ثم تطور فعل (أنقى انغاء) فصار (غنى غناء) .

ونأتى الى ما في هذه اللقلغة الثمينة من قيمة انسانية عاطفية لا يصيد امامها حتى القاسي من القلوب . فمن الذي يلوم قلب الام اذا هو خفق نشوة وذاب رقة عند سماعها ؟ ان الام ما تكاد تسمع هذا الصوت الساحر حتى تقبل على وليدها بكل جوارحها فتجلس اليه وقد هبطت الى مستواه اللغوي ، بل العقلي أيضا . فاذا هو قال لها ضاحكا : لقلقلغلغل ... شعرت أن الدنيا لم تعد تسعها من فرط السعادة . فتجيبه على البديهة : لقلقلغلغل ...

ويظان على ذلك ، مشتبكين في حوار (عيشي) ليس له معنى قاموسي ، وفيه كل معاني التخاطب والتعاطف بين أعز انسانين . وتراهما مستغرقين في الضحك

كانهما يتبادلان التكات والملح في حوار يتجاذبان به من وضع موليين . فهذا اللغو ، أعني تبادل اللغفة و النغفة هو أصل (المنافاة) بين الام وحشاشتها ، ايها الاخوات . ينفي الطفل فتناغيه أمه ، أي تنغي معه . ومن تطوّر (المنافاة) بين الام ووليدها صيغت كلمة (المنافاة) بين الحبيبة وحبيبها .

أفبعد أن رأينا كيف نشأت هذه الالفاظ التي ذكرنا والكثير غيرها مما لم نذكر لضيق المجال .. أفبعد هذا نستطيع أن نخطئ في معرفة اصلها اذا نحن وجدناها في لغة أو لغات أجنبية ؟ هل يحق لي بعد كل هذا أن أعترض على نفسى مرة أخرى لافند نظريتي ؟

فلنرحل الآن الى اوربا نبحث في لغاتها عن عطايا الطفولة العربية . ها هي كلمة (لغو) العربية بمعناها الكلامي قد صارت في الاغريقية logos بمعنى (الكلمة) . وها هي كلمة (لغة) قد صاغ اللاتين منها كلمة lingua بمعنى اللسان واللغة ايضا . وهي ما زالت كذلك في الايطالية معنى ومبنى . ومنها صيغت langue الفرنسية بمعنى اللسان واللغة ، و langage الفرنسية و language الانكليزية بمعنى اللغة . وقد صاغ اللاتين من (غنى) فعل cano بنفس المعنى ، ومصدره عندهم canere و cantare

وما زال هذا المصدر بنفس المعنى والمبنى في اللغة الايطالية . ومنه صاغ الفرنسيون فعل chanter وعنهم أخذ الانكليز فعل chant بنفس المعنى .

وثمة ما هو أهم من هذا . فلنعد الى logos الاغريقية ، فقد صاغوا منها (لوجيكا) : logica في الاغريقية واللاتينية معا بمعنى (المنطق) ، وهو (لوجيك) : logic logique في الفرنسية والانكليزية . ومن كلمة (اللغة) صاغوا (لوجيا) logia في الاغريقية واللاتينية أيضا بمعنى (الكلام والمكالمات) والحقوها ببعض الاسماء للدلالة على العلم ، وهي تنطق في اللغات الحديثة (لوجي) في مثل biologie و psychologie و geologie و technologie وكلمة (لوجي) : logie logy هذه شائصة الآن في اللغات الاوربية وغير الاوربية . بل اننا نحن العرب نستعملها أحيانا ، مضطرين في بعض الكلمات التي لا نجد لها مقابلا عربيا ، ونحن لا ندرى انها عريقة

في العربية . ولو درينا لتسامحنا معها ، بل لاحتضناها وقبلناها في غرة جبينها بعد اذ اجتمع شملنا بها اليوم . ولئن كانت بعض الكلمات (الملوغة) - أي الملوحة ، المنتهية بكلمة logy هجينة نصفها عربي ونصفها أعجمي مثل psychologie فان technologie عربية خالصة النسبة ، لان نصفها الاول (التقن) عربي كالذي قلنا آنفا ونصفها الثاني (لوجي) logy عربي كالذي رأينا توا . ولو ترجمنا الكلمة عن الاغريقية ترجمة دقيقة لقلنا (كلام التقن) . وما أحسن التقن اذا تكلم .. كلاما (لوجويا) .. أي منطقيا .

الفروج العربي

والآن جاء دور الفروج العربي ، الذي وعدناكم بالتحدث عن عبقرته . هو أيضا سيد الفراريج ، أعني من الوجهة اللغوية . انه ككل فراريج الامم يكون حين يفادر بيضته من أجل فراخ الطيور وأقربها الى النفس . وطائفا أطربتنا انشودته الجميلة : صي صي صي ...

فمن نبرة (صي) هذه قال العرب (صاي الفرج) بمعنى : صوت . وتطورت كلمة (صاي) مع الزمن فصارت (صاء) ، ثم تطورت مرة أخرى فصارت (صات) ، ثم (صاح) ، ثم (صحل) ، ثم (سهل) .. الى آخر ما هنالك .

وعندما نتتبع مآثر فروجنا الغالي في اوربا نجد فعل (صوت) قد غدا في اللاتينية sonitum باضافة النون ، و sono يحذف التاء وما بعدها ، بنفس المعنى العربي . وقد تبين لي في كثير من الحالات أن اقحام النون بغير داع في وسط الكلمات المقتبسة من العربية هو عادة نطقية عند بعض الاوربيين . ومن sono هذه اشتقت كلمة (سوناتا) sonata بالمعنى الموسيقى المشهور في اللغات الاوربية وغير الاوربية . وكثيرا ما نستعملها نحن أيضا ، على كره ، لاننا لا نعرف صلة القربى بيننا وبينها ولا نجد في لغتنا كلمة تناسطها .

ونجد منها في الفرنسية sonde و sondage و sonner و sonder وغير ذلك . أما في الانكليزية فنجد كلمة (الصوت) الفروجية العربية تنطق (ساوند sound) بنفس المعنى . وعنا أيضا

أقحموا النون في الوسط . ولكن توجد في الانكليزية كلمة أخرى بغير نون وهى (شاوت) shout بمعنى (الصوت) العالى ، أى الصياح . كذلك نجد في الانكليزية كلمة squeal بمعنى (الصهيل) .

وقد طال بنا الحديث فلا اريد التوسع في مناقب فروعنا أكثر من هذا . وهو فى الحقيقة لا فضل له على غيره من فرائج الله سوى أنه عربى ، أعنى ان العرب الذين كان له شرف النشوء بين ظهرائهم هم الذين لحنوا معزوفته الساذجة العذبة (صى صى صى) .. ووهبوا الطاقة التعبيرية والغنى اللغوى . فالفروج العربى كسائر الفرائج يولد على الفطرة أيضا ، أبكم فى تصائيه ، وأصحابه يعربونه فيبدعون من نعمته البسيطة ذات النبرة الواحدة أنواعا مختلفة من الاصوات ، من صياح الانسان .. الى صهيل الحصان .. الى سوناتات فيردى وباخ وشوبان .

تصحيح تسمية

من كل ما تقدم يتضح ان اللغة العربية لغة عربية . ولا يمكن أن تكون الا لغة عربية . لا تقولوا لى هذا شأن جميع اللغات ، فهل اللغة الفرنسية مثلا ليست فرنسية ، وهل الانكليزية ليست انكليزية ؟ نعم ان اللغة الفرنسية ليست فرنسية واللغة الانكليزية ليست انكليزية بل كلتاها كغيرهما من معظم اللغات ان لم نقل كلها ، خليط من لغات أجنبية ومحلية . وهى غير أصيلة . أما اللغة العربية فلغة عربية . العرب هم الذين صنعوها ، فى جزيرتهم العربية نفسها ، وهى الارض المصدرة للعرب والعربية منذ مئة وعشرة قرون على الأقل . ولا يمكن لهذه اللغة أن تكون مستوردة من مكان آخر ، لاننا نراها هنا تصنع من مادتها الطبيعية

الفعل الاولى ، تحت سمعنا وبصرنا ، بانفواه كبارهم وصغارهم .. من أصواتهم فى مختلف حالاتهم ، من قهقهة وغنا . وتمطق وسعال ، وبمناكير فرائجهم ، وفجيج أفاعيهم ، وزقزقة عصافيرهم ، وقعقة وعودهم . هم وحدهم الذين ينطقون بكل هذه الاصوات ، حلقية وغير حلقية . وكل أعجمى اقتبس كلمة من لغتهم اضطر الى تغيير هذه الاصوات ان وجدت فيها . هذه الاصوات نستطيع فيما أظن أن نطلق عليها علميا اسم (الاصوات العربية) . وان كانت بعض الشعوب تستطيع أن تنطق ببعضها ولا سيما من الشعوب المجاورة للعرب فلا توجد أية أمة على وجه الارض غير العرب تستطيع النطق بها كلها .

واذا كان علماء الاجناس قد قرروا ان الاوربيين كانوا نزحوا فى الاصل من آسيا أو من الهند بالذات مستدلين على ذلك بالتشابه بين اللغات السنسكريتية واللغات الاوربية ، حتى لقد سموها باللغات (الهندية / الاوربية) ، فليس بوسعهم الآن الا أن يأذنوا لنا ان نستعمل نفس المعيار ونستنتج نفس الاستنتاج فنقول ان الشبه بين العربية والسنسكريتية يمكن أن يكون تفسيره كذلك هجرة العرب على اثر جفاف جزيرتهم الى الهند وغيرها - حيث استقروا واستقرت لغتهم .

وعلى هذا يحق لنا بنفس الاسلوب أن نسمي السنسكريتية باللغة (العربية / الهندية) . وأما اللغات الاوربية التى سموها (الهندية / الاوربية) فلعله قد آن أوان تعديل تسميتها لتطابق واقع التاريخ فيكون اسمها الصحيح منذ اليوم هو اللغات (العربية / الهندية / الاوربية) .

وادرك شهرزاد الصباح .. فسكتت عن الكلام المباح
عبد الحق فاضل